إبداعات جديدة

٨

عاشق المدينة

(مجموعة قصصية)

أحمد زكى عمارة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية
سلسلة إبداعات جديدة

تصميم الغلاف:
محمد عطية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

عمارة، أحمد زكى.
عاشق المدينة: مجموعة قصصية / أحمد زكى عمارة.
– القاهرة: دار المعارف، 2016.
72 ص، 19.5 سم (إبداعات جديدة؛ 8).
تدمك 8 8328 02 977 978
1 – القصص العربية القصيرة.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 813.01
رقم الإيداع: 5627/ 2016
رقم أمر التشغيل: 1/2015/15
رقم الكونجرس: 3 – 840022 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهـــداء

إلى كل من لم يُكمل أغنيةَ الحياة

عاشق المدينة

حكاية قديمة:

المدينـــة ترقد فى حضن الجبل.. تحتضن القنـــاة والخليج والملل.. المآذن والمداخن تبدو كأيد ضارعة للســماء، ورائحة الحرب تفوح من الأرض والماء.. الحشرات والهوام ترتع فى حرية.. الطيور هاجرت.. أعشاشـــها تناثرت.. الغمام أبطأ من ســـرعته، وألقى ظله كئيبا أسود اللون، فشحب وجه المدينة!

هكـــذا رأيتهـــا.. طفت فى أرجائها.. فلم يطالعنى ســـوى بيوتها المحطمة.. أحشاؤها المكومة.. حجراتها المهدمة!

والماء فى خليجها قد انحسر.

فـــى ليلة مظلمـــة غاب عنها القمـــر.. سمعت صمتهـــا، أرهبتنى أشـــباحها، وخلت أنها لوحة خالدة، أو أنها بقعة مطموسة المعالم، سيُدير التاريخ عنها وجهه!

وقفت بالنهار

لعلنى.. مع الضوء أبصر ابتسامة.. وجدتها. وجدت الابتسامة.

عندمـــا داعبـــت الريـــح غصون شـــجرة خضراء تقف أمـــام إحدى النوافـــذ، أزاحت عنهـــا الأوراق، فبـــدت النافذة مبتســـمة.. لعلها ابتسمت لأفكارى.

فى اللحظة نفسها، سمعت أنينا، صادرا من قرب، لكنه بدا كأنه آت من بعيد، طار بصرى بسرعة إلى مصدر الصوت الآثم. فضبط الريح

متلبسا بمداعبة نافذة مفتوحة! بل إنه كان يطوّحها يمينا ويسارا، كانت النافذة لبيت مهدم، وكانت اللعوب مستسلمة للريح.

وتذكرت الصورة.. صورة ال.....

* * *

.....الحبل ملقى على الأرض كالثعبان، لكن لا حياة فيه.. الفريق مُصطفٌ على جانب منه عند أحد الأطراف.

انتصبت القامات، وتحفزت العيون، وفارت الدماء فى العروق، وازدادت نبضات القلوب، واستعرض الرجال عضلاتهم، وتشبثت أقدامهم بالأرض.

الشىء نفسه كان يحدث على الطرف الآخر للحبل. والأمل فى الفوز يكاد يكون حقيقة... أمام العيون المتطلعة تمضى اللحظات، وتتوالى الأحداث، ولكن فى العقول، توقعات، وتمنيات.. الأجساد تموج بالحركة، فى الخارج انفعالات، وفى الداخل تشتت.

كل فريق يمسك بطرف.. والحبل يتوتر، يكاد يتمزق أو يتفتت، لكنه لا يشكو من أحد، ولا يتحيز لأحد.. الجذب من كلا الطرفين، والحبل ساكن فى الوسط بين الفريقين، لا يتزحزح هنا أو هناك. ثم....

....تبدأ حركة شد قوية، فتتشنج العضلات فى الوجوه، وتصعد الدماء متدفقة إلى الوجنات، وتغيب دماء فى وجنات أخرى. وتلمع السواعد تحت وهج الشمس، وكأنها مصنوعة من فولاذ.

ويفوز فريق على فريق...

ويتراخى الحبل ويسقط!

* * *

أقبل مسـرعا.. ثم توقف فجأة، وبجزعـه العملاق انحنى للأمام انحنـاءة خفيفة، فبدا كتمثال عظيم يميـل.. وبكف قوية هوى على صدره، وبحماس ووعيد قال:

– أنا من السويس.. عارف يعنى إيه؟ بقولك أنا من السويس..!

قالها وابتعد، وترك السـاحة أمام منافسـه، وغاب بين زملائه.. لكنه، لم يغب عن ذاكرتى.. وتلك كانت الصورة.!

* * *

أنا مازلت فى المدينة.. مدينة السويس.

أخالها حزينة.. أو أنها كذلك.. مسدودة المسالك، وتنتظر..!

طويـت فى خاطرى حزن عمرى كلـه، واحتوتنى أرجاء المدينة، أو أننى احتويتها. ذابت شـوارعها فى مهجتى. ضللت فى متاهتى، وجدتنى فراغا وإثما. التقطت عينى من الصور ما شاء لها القدر، وتولى عقلى نقشها فى وجدانى. فمحت وردىّ أيامى، ومنظر النجوم والليل فى أحلامى، وبهجة المسافر فى عرض البحر، وابتسامة سائحة تؤنس بها نفسـها فى الغربة... فترتد ترحيبا من أبناء المدينة. والسـفينة المضاءة، والبترول فى قافلة الليل.. من الشرق للغرب. والقافلة عليها أعلام البشـر– بألوانها الزاهية – تبارك المدينة، تستأذنها فى المضى نحو الحياة والسلام.

حاولت أن أحمل معى بعضا من أصدافها.. أو.. أستنشـق قليلا من دخان مصانعها.

حاولت أن أبصر الجمال، يتبختر فى شـوارعها كما كان يفعل من قبل.

حاولت أن أستعيد ذكريات ما قبل الذكريات.. ذكريات حب قديم، أو ألمح عيون الليل كما كانت تتلألأ بكل الألوان على صفحة الماء، والموسيقى يطرب لها الموج فيرقص مزهوا بمدينته.

حاولت أن أرسم بأهداب عينى صورة سفينة فوق مياه القناة..

بيد أن أدواتى كلها تعطلت..؟!

* * *

كتبت للحبيبة.. أحكى لها عن الأمل.. برغم أن فى المدينة كل شىء بلا أمل.. وقلت فى الحكاية بأننى:

- رأيت فى الصباح فى كل حى ملحمة، وإننى لما وصلت محطة القطار. وجدتها بلا قطار.. محطة القطار.. بالليل والنهار نائمة.... وتنتظر..!

تنتظر الراكب والقطار.. تنتظر الفجر والنهار.

كرهت أحرف الكلمة.. كرهت يا حبيبتى هذا الانتظار. رددت من كيانى: إلى متى.. إلى متى ننتظر..؟

فليسقط الانتظار، فليسقط الانتظار.

* * *

وردت الحبيبة:

- وأنت فى المدينة.. أصرخ فيها.. لن يسمعك أحد!

احمل أحجارا من تلك الأكوام.. فجر غضبا أحمر فى كل طريق.. زلزل هذا الحصن القابع فى طرف أليم.. اشحن هذا الجو بآلاف الآيات.

قل: بل كان الصبر.. لم يكن الصمت الأبدى.

فقائد المسيرة.. سمع الهمس الدائر، وهو يعرف أن الشعلة انطفأت، وأن المدينة تبحث عن بطل، و.....

قل للمدينة: لن يصل القطار.. إلا بعد القرار.!

* * *

أبو الهول حارسا:

وعشت فى حكاية البطولة.. ما بين رسالة حبيبة، ومدفع وصورة. أحاول أن أفهم ما يدور، لكن الصمت أضحى سيد الموقف.

على الرمال بعد طول صمت وانتظار، قرقعات جنازير.

- أهذا حلم؟

- بل حقيقة.!

ويطل التاريخ برأسه وسط المعمعة، ويسجل من بين الوهج المتصاعد، كيف انهدمت نظرية أن نجهل درس التاريخ؟! كيف تداعت أفكار؟ لا خدعة أو لعبة، كل شىء يجرى فى عز النهار، وواضح من الغالب ومن المغلوب. ظاهر من المقتحم ومن المذهول، من هول المفاجأة.

لأول مرة منذ زمن يهاجم جيش مصرى.. لأول مرة منذ زمن يكون القرار صائبا كالسهم.. وتُقتل الحكاية السخيفة، وتتردى على رمال سيناء، ويشهد العالم ذلك وهو مأخوذ أو مذهول.

المدينة كما هى يوم رأيتها.. يوم أن غادرتها بقلب جريح، ويلمحها العدو فى ثوبها الحزين، يلمحها فى قلبى فينظر إليها طامعا.. ويمضى فى محاولة مستميتة لدخولها، ويجمع لها الجمع.

لكنهـا تقف فـى وجهه تدفعـه وتـرده. طائراته تحلـق فتتهاوى محترقة. ويتجاسـر، ويمد يدا آثمة مدعمـة بالحديد والنار، لكنها تقطع أو تحترق بنارها.

على المدخل الشـمالى الشـرقى.. اسـتطاعت دبابة أن تفلت لبضع خطوات.. لكنها تعثرت فى مدفعها! وأخرى حسبتها كوما من القش المحترق.. وثالثة، ورابعة.. لقد انصهر الحديد على أبواب المدينة.

لم يكن على المدخل الشمالى الغربى إلا صورٌ مشابهة، لكنها كانت لدبابات تحاول الهرب.

الجبـل رابض خلف المدينة كأبى الهول يحرسـها.. وأمواج المياه فى الخليج تشيع طلقات مدفعيتنا فى منظر بهيج.

الصمت عاد يصرخ..!

عزم الأبناء، واتقاد الشرر فى العيون يتوعد من يقترب.

الموت يتلقف الغريب المعتدى مرحبا به.

المصانع والبيوت نفضت عنها غبار السـنين، وخلعت ثوب الحزن فى لحظة خالدة.

* * *

حكايـة المدينة الباحثة عن البطل، فـوق كل الحكايات، فالمدينة لم تكن صامتة... لكنها كانت صامدة.

على البعد لمحت وجهه الأصيل... هتفت فيه صارخا:

– يا بطل.! يا بطل.!

رد فـى تواضع لم أكن أنتظره، فأضاف فى قلبى رصيدا جديدا له، رد فى فخر قائلا:

– صانع القرار هو البطل.

اهتـزت صفحاتى طربا فى موكبه، وكدت أرفعه عاليا عاليا، لولا أننى شغلت بنداء من المدينة يهتف بالناس:

– ارفعوا الأعلام.. ولوحوا للسفن...

ونظـرت امرأة إلى مرآة – بعد أن مسـحت الـتراب الذى علاها – تطمئن على تجاعيد وجهها، ثم قالت لابنتها بصوت واثق:

– من اليوم سنربى الحمام.

قبل أن أغادر المدينة.. قصفت المدفعية.. تسائلت:

– هل مازالت الحرب مستمرة؟

وتضحك منى المدينة، ويزداد القصف...

– إنها الأعياد يا ولدى..

مـن الذى تولى الإجابة؟ كان شـيخا بجانبى، وكان مشـغولا فى مسبحته، وكان يردد فى همس تقى: الله أكبر.. الله أكبر.

احتوت عينى المكان بفرحة، كان مازال ينظر إلىّ بوجهه الإنسان، لكنه ابتدرنى هذه المرة بالقول وهو يبتسـم: أنا من السويس.. عارف يعنى إيه؟

قلت: الآن عرفت..

* * *

الشمس والقمر

راحت الشمس تخاطب الأرض - فى هذا اليوم - بلهجة عنيفة! لهجة غير مفهومة، وأخذ الكون بأسره يرقب حركة غيرعادية كانت تجرى على كوكب الأرض، بيد أن قمرا صناعيا نشط - هو الآخر - يرصد جانبا من هذا الكوكب، ويرسل بما يحصل عليه من معلومات إلى قاعدة فى مكان ما على الأرض.

عبر بفكر «بهيّة» صورة زوجها الغائب، فتمثل أمامها ممدود القامة، مرفوع الرأس، تبدو فى عينيه نظرة حانية ما لبثت أن تحولت إلى بريق إصرار وعزم عُرف بهما..

تفرست «بهيّة» - وهى مستلقية على ظهرها - فى سقف الحجرة، ثم أمالت رأسها تتأمل المكان من حولها، لكنها راحت فى غيبوبة لا تدرى أطالت أم قصرت! وكان آخر ما رأت طيفا حبيبا إلى قلبها، هو طيف «رمضان» زوجها.

تجمع حولها لفيف من الأهل والأقارب، تعلو وجوههم السمراء سحابة من القلق، ويعتريهم شىء من الخوف، وكاد الترقب يغرقهم فى ثنايا الزمن التى تكاد تكون بلا نهاية، لولا أنه بين الحين والحين كان يبدد جمود الموقف كلمة، أو ابتسامة، أو يقفز إلى خيال أحد الحاضرين صورة للمولود! فيتململ بالحركة ويتمتم بالدعاء، وسرعان ما يرفع الجميع صوتهم يبتهلون إلى الله، يرجونه أن يكتب لبهيّة السلامة، ويتمنون مرور تلك اللحظات، متعجلين قدوم الضيف الجديد إلى رحاب هذه الدار، لعل بمقدمه، يعم الخير، وتحل البركات.

مر القمر الصناعى على قرية «السوالم»، لكنه لم يستطع أن يسجل أو يصور ما حدث فى تلك الدار الصغيرة، ولا أن يستجلى سر هذا التجمع فيما بعث به من صور! لكنه على كل حال قد التقط صورا عديدة أرسلها فى سرعة فائقة، بدت فيها دور الفلاحين على حالها لم تتغير، وأشجار الكافور والجميز تقف وقفتها الشامخة، وبعض الدواب مازالت تدور فى الساقية، وكأنها تقول لهذا القمر:

– لست وحدك من يدور..الكل يدور، وليس أحد بأحسن من أحد!

فى مكان آخر وبعد لحظات، استطاع هذا القمر أن يرصد مجموعة من العربات تقف فى غير مكانها المعهود، فأرسل صورة ليست ذات معنى، إلا إنه بالتدقيق فيها، تبين أن هناك فى المكان نفسه مجموعة غير قليلة من الأفراد، ولقد كان «رمضان» زوج «بهية» أحد هؤلاء.

كما أن الصورة لم تُضف إلى ملفات جامعى المعلومات جديدا. فهى بالطبع لم تظهر ملامح رمضان، ولا ملامح رفاقه، وإلا فإنها كانت ستنقل تحفزهم واستعدادهم، وتترجم ما كانوا ينتوون فعله. فقد كانوا فى تلك اللحظة جميعا ينتظرون أوامر قائدهم بتنفيذ عملية خطرة. ولأن الوقت نهارا، ولأن أحدا لم ينظر إلى السماء، فقد كانت العيون كلها معلقة على الشاطئ الآخر للقناة التى أمامهم، والتى يقفون على شاطئها الغربى، لذا فقد مر هذا القمر ولم تلحظه عين، ولا هى كانت ستهتم به لو أنها استطاعت رؤيته.

مالت الشمس بقرصها المتوهج من خلفهم ميلة بسيطة ناحية الغرب، وألقت بأشعة نافذة، وكأنها تستحث الهمم قبل أن تغرب

مودعة. واستطارت عيون الجند حماسا، وحمية، وهم يرقبون الشاطئ البعيد، وراحت نظراتهم تستبق ذلك الأمل الذى بات حلما.

الرغبة تعتلج فى النفوس تتعجل الساعة، وبعض الخوف يطوف بالفكر! لكن سرعان ما يتبدد أمام تلك المشاهد، الجنود والمعدات، العزيمة والإصرار، الإرادة الوطنية، منظر الأرض المغتصبة، حالة التأهب، رائحة المياه، أحلام الثأر، نهاية سنين اليأس! لكن ذلك لم يمنع البعض من أن يتساءلوا: هل حقا ستحين الساعة؟ ومتى يبدأ الانطلاق؟

وينبرى «رمضان» فى حماس قائلا:

- إذا لم تصدر لنا الأوامر، فسوف أعبر دون أمر!

فيمد زميله الواقف بجواره يده ويضعها على فم رمضان كى يسكته.

كان «رمضان السعيد» جنديا صلبا شجاعا، ولذا فقد أوكل إليه فى عملية عبور قناة السويس مهمة حمل العلم، وكانت الأوامر تقضى بأن يغرسه أعلى الساتر الترابى المقام على الشاطئ الآخر بمجرد وصوله إلى أعلى نقطة. ولم يكن يُصدق بعقله أن ما قيل له يمكن أن يصبح حقيقة! فكل المظاهر تشير إلى عكس ذلك! لكن شعورا خفيا كان يُدخل إلى قلبه الطمأنينة، ويعده بأن ذلك لابد أن يحدث، بل إنه عزم - بينه وبين نفسه - أن يعبر القناة سابحا عندما يحل الليل، ويضع ذلك العلم أعلى الساتر الترابى المقام على الشاطئ الشرقى ويعود، ذلك الساتر الذى يخفى خلفه الكثير مما لا يستطيع أن يعرفه أو حتى يتخيله، فإذا طلع الصبح، شهد هو ورفاقه علم بلادهم يرفرف - ولو للحظات - أمام أعينهم، وليكن بعدها ما يكون!

صوت كصوت الرعد شق الهدوء المخيم على المكان، لم يمهل أفكار «رمضان» أن ترتد إلى عقله، ثم تعالت على إثر الصوت صيحات كانت خليطـا من تهليل الفرحة، وثورة الغضب، ولم يكن الصوت إلا صوت أسـراب الطائرات المصرية تعبر قناة السـويس إلى الشـاطئ الشرقى. وما هى إلا ثوان حتى كانت ألسـنة النار تتصاعد وسـط دخان كثيف من حصون العدو!

قفز «رمضـان» من حفرته، وألقى بنفسـه مع رفاقـه فى القارب المطاطـى الذى انزلق إلى مياه القنـاة، خاطر واحد عبر بفكره كومضة البرق، لحظـة أن قرر العبـور، صورة «بهيّة» زوجتـه، ليس لأنه يحبها فحسـب، ولكن لأنـه يعلم أنها على وشـك أن تلد له مولوده الأول.. صورة لم يكن يستطيع أن يخلص خاطره منها.

واسـتقرت فى أذنه قولة (الله أكـبر) فكبر وحاول أن يكون صوته عاليا...عاليـا جدا، إلا أن صوته اختفى وسـط أصوات الرفاق، ودوى الرصاص.

تخطى الجنود الفاصل الرهيب، ذلك اليأس الذى خيم على عقولهم وأفئدتهم سنين طويلة، وبدأت أول طلائعهم تصل إلى الشاطئ الشرقى للقناة، ووصل رمضان إلى الشاطئ الآخر، وبدأ يصعد الساتر الترابى.. غاصت أقدامه فـى الرمال فخلعها، ثم راح يصعد إلى القمة فى اتجاه النقطة المحددة، ووصل وهو غير مُصدق، وكأنه فى حلم، وبكل قواه أمسـك بالعلم المصرى وغرسه فى الشاطئ، وكأنه يغمد رمحا فى قلب العدو، فأضحى مرفرفا خفاقا يهتز من جلجلات التكبير.

فجأة انهمر رصاص العدو على العلم بغية تمزيقه.

لكن هذا الرصاص أصاب رمضان، فسقط بجوار سارية العلم شهيدا، يحتضن الأرض راضيا قرير العين، وفى اللحظة نفسها دوت صرخة عالية فى داره، هناك فى قرية «السوالم»، لم تكن هذه الصرخة حزنا عليه! وإنما كانت صرخة المولود الجديد، الذى كان يستقبل عالمه الجديد لأول مرة، واستمر صراخ الصغير يملأ الدار، وكأن صراخه رجع لتكبير الجنود وهم يعبرون القناة، ويقتحمون حصون العدو! وانطلقت الزغاريد فى الدار على إثر سماع صوت الصغير، وسرعان ما عم الخبر أرجاء القرية، فإذا بالزغاريد تملأ القرية كلها.

امتدت الفرحة إلى القرى المجاورة بل وكل قرى مصر، فقد كانت أخبار النصر تتسلل إلى كل مكان، فتترك على الشفاه بسمة وفى العيون فرحة، بينما كان القمر الصناعى مازال يدور حول العالم، يرسل الصور إلى القاعدة التى انطلق منها، ويعترف مُسلما بعجزه عن تصوير إرادة الجندى المصرى، عندما كان يتحفز لساعة كانت بداية لطوفان هادر، أعاد الأرض والكرامة.

وسُجّل فى سجل المواليد أنه فى يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣م قد رزق «رمضان السعيد» بمولود سُمى «بدر».

* * *

خطوة.. خطوتان

تتولد.. تكبر.. تنتشر، تأخذه إلى عالم فسيح!

تتعقد.. تخبو.. تتوهج فى نفسه.. يقلبها على كل الوجوه، يعيش لها وبها.

يمد بصره نحو الشرق، فتعنفه شمس الصيف، فيبتسم أو يعبس؟!

أحيانا ينهض من مكانه لأن وقت راحته قد حل.

إنها فكرة، تسرى مع دمائه، فتغذى كيانه وعقله، وتتمكن من روحه وخاطره، فتتجسد فى أحلامه لا تبرح ذهنه، ولا تفارق خياله.

وهو.. صامت.. تتحدث فيه عيون شرقية، تُعبر عنه ملامح لفحتها الشمس، ولطمتها الرياح، ونقشتها ذرات الرمل، فاستحالت لوحة، تنطق بمكنون نفس بشرية صابرة، مجاهدة، منطلقة لأمر باد على السطح.

وهو...

صعيدى.. عاش طفولته، وصباه على أرض الثأر.. رضع، ثم تعلم كيف يزود عن الاسم والعرض.. وعن الشرف والأرض.

نعم.! هكذا كان لبن الأم، وكلام الأب، وحديث كل الناس، حتى نظرات الكلاب فى قريتهم «البدارى» كانت توحى له بذلك.

أو قل إنه كان يحلم – ككل البشر – ومن حقه أن يحلم كيفما شاء. فلم يكن ما يحلق بخياله سوى رؤية صادقة لواقعه، ذلك الواقع الذى أثار كوامنه وحرك سواكنه.

مئات الصور جسدت فكرة الثأر فى عقله.. صور الضحايا.. فى فلسطين.. وسيناء، آلاف القنابل التى ألقيت على المواقع، والجنود، والعمال والأطفال، السنين المريرة.. وأيام الانتظار الطويلة، قسوة الحياة فى الصحراء، والبعد عن القرية الحبيبة وعن الأهل والأصدقاء، مرارة الكلمات المتناثرة على الأفواه بعد هزيمة ثقيلة. الأرض المغتصبة، والخطى الهمجية على ضفة القناة.

ذلك العلم الذى يحمل أحقاد التاريخ.. يرتفع فوق جزء من أرض البلد.. يبدو وكأنه مغروس فى الفؤاد أو فى الكبد!. الدم والعرق والجهد، ومجافاة الحياة ومباهجها.

كل هذا خلق لدى «عبد الجبار» شعورا قويا، ورغبة جارفة، أن يُسقط إحدى طائرات العدو.

* * *

ذات يوم جاءته من البلد رسالة تحمل له البشرى أنه أصبح أبا، وأن الأهل فى انتظاره.. اليوم نفسه، كانت نفسه تحدثه بأمر آخر يبدو كاليقين..

– اليوم يا «عبد الجبار» هو اليوم الموعود.. سيقوم العدو بغارة جوية.. وستمر طائراته فوق موقعك.. وستصوب عليها.. وستصيب إحداها.. بل تلك بالذات.. التى تبدو لك دائما.. عفريتك الذى لا يفارقك ليل نهار.

لكن نزعة بشرية اختطفته من عالمه، وزينت له رغبة مشاهدة المولود الصغير، ودفعته أن يطلب إجازة، يقضيها فى بلدته بعيدا عن أفكاره المحلقة فى عالم الخيال.

وبـين أن يصدق خياله الذى مناه بأمنيـة طالما انتظرها.. وبين أن يطيـع عواطفه التـى تدعوه أن يخف لرؤية الزوجـة والمولود، مرت لحظـات.. وفـى نهايـة الأمر قـرر أن يخفى خبر الرسـالة عن كل الزملاء، وطوى خبرها فى أعماق نفسه.

صـورة واحدة ظلت طافية أمام عينيه، طائرة معادية فى السـماء تحترق وتهوى، وراح يحدث نفسه:

– سأسـقطها.. بإذن الله سأسـقطها، إننى أبصرهـا أمامى دائما، لا تفارقنى.. لكنهـا لا تقترب.. أهى تتحاشـانى؟.. أهى تعاندنى؟ أم إن ذلك دليل على سوء حظى؟

إنها لا تمر من فوق هذا الموقع أبدا.. إنى منتظر..

ويتطلع «عبـد الجبار» للسـماء بعين الإصـرار.. ويعود لحديث نفسه:

– الفضاء رحب، والسـماء متسـعة الأرجاء، والطائرات ليسـت إلا مجرد نقط تجوبها، وهيهات أن تمر إحداها فوق مدفعى أنا!

إن لحظات الانتظار مشحونة بالأفكار.. مليئة بالهواجس.. مغلفة بالقلق، وانتظارى هذا من نوع آخر.. إنه أشد صعوبة، وأكثر إرهاقا. حتى إننى أحيانا أضحك من نفسى، وأحيانا أخرى أشفق عليها.

أليـس من العقل أن أترك هذه البقعة مـن الأرض، وأذهب للأهل والولد؟

وتتصارع الأفكار فى رأس «عبد الجبار»، ويمضى النهار كله وهو جالس خلف مدفعه يرقب السماء بعين الصقر، وفؤاده مملوء بالأمل، تشيّعه الشمس بعد نهار طويل بأشعتها الباهتة.. الكسولة.. وتتركه

مع ليل بارد، يتصور شـكل ولده الصغير، ويتعجل طلوع الصبح حتى يذهب لمرآه!

* * *

فـي الصبـاح، طلب الإجازة.. وراح يقدم خطـوة - فى فرحة - ويؤخر خطوتين - فى تردد! وشجعه الزملاء على أن يقضى مع ولده يوما أو يومين.

الآن هو جالس فى قطار الصعيد.. صوت العجلات يعطيه إيحاءات بقرب اللقاء.

النخيل على جانبى الطريق أشـباح تتمايل، فـي لوحة خلفيّتها السماء الزرقاء، الرمال فى الجانب الشرقى على طول السكة الحديد، تنقله إلى أرض الموقع، فيقفز قلبه فى صدره، وتهزه هواجسه، فيكاد يبرح المكان، لولا الزحام..

البطولـة عالم يخايله.. فيكـرس كل خلجاته - طائعا أو مكرها - لسـاعتها، والبطولـة عند «عبد الجبار» أن ينال مـن عدوه.. أن يثأر منه!

- تترك القطار يا عبد الجبار وتعود إلى موقعك؟

- لماذا أنت فى هذه الإجازة - بالذات - يخامرك هذا الإحساس؟

انسـياب النيل فى الـوادى الأخضر، هدأ من فكـره، فى اللحظة نفسها ارتسمت على شفتيه ابتسامة، عندما سمع صوت رضيع يبكى على صـدر أمه، بينما القطـار يغادر إحدى المحطـات على الطريق الطويل.

وبعد سـاعات كان يطالع وجه زوجتـه، وينظر فى تقاطيع المولود الصغيرة، ويحتضنه بفرحة، ويتحدث إليه بكلمات غير مفهومة:

– إنهـا الملعونة، هـى التى منعتنى أن أحضر لـك بالأمس، لقد ظللت طوال النهار أنتظرها! ردت زوجته بصوت واهن ضعيف:

– تنتظـر من؟ من هذه التـى تنتظرها؟ من تكون هذه التى منعتك عنا؟

نظـر إلى زوجتـه نظرة حانية، وابتسـم قائـلا: اطمئنى... إنك لا تعرفين شعورى نحوها. ثم نظر إلى وجه الطفل، وأردف:

– لابد أنها سـتأتى فى يوم ما، وسـأظل انتظرهـا.. والويل لها عندما تقع عينى عليها.

لم تسأله زوجته هذه المرة، واكتفت بالصمت، وأخفت وجهها فى كفها وهى مستلقية.

عـاد «عبد الجبار» إلى الموقع بعين مستفسـرة، ونفس قلقة، لكنه سـرعان ما أدرك أن شيئا لم يتغير، اطمأن إلى مدفعه، وقابله الزملاء بالتحية، وبالتلميحات، مهنئين أحيانا، مداعبين أحيانا أخرى:

– كيف حال المولود.. يا وحش؟

– والله كنا خايفين يزورونا فى غيابك.

– ولد ولا بت يا عبد الجبار؟!

ويرد عبد الجبار مفتخرا.. وكأن له فى ذلك اليد الطولى..

– ولد طبعا!

وترتفع الضحكات كلما ألقى الليل بوشاحه على أرض الموقع، بعد نهار يقظ صامت.

ابتعـدت شمس الصيف، وولت شـهوره، وأقبل الخريف، وجاء شهر رمضان زائرا. فاطمأنت القلوب، وتكللت الوجوه بهالات النور.

بعـد صلاة الفجر، لونت الشـمس وجه الصبـاح بلونها الذهبى، وقالت لمياه القناة سرا؟! فتموجت لذلك مياهها موجات متراقصة.

* * *

الصباح .. ككل صباح.. أو ربما هو ليس ككل صباح..!

الظهر.. حركة غير عادية على أرض الموقع.

السـاعة الثانية وخمس دقائق، الطائـرات المصرية تضرب مواقع العدو فى سـيناء!... تقصف ساعات الانتظار.. تدمر حاجز اليأس، تضىء المكان بنار الثأر، وأنوار النصر.

على الوجـوه.. انعكاسـات... وعلامات.. وبسـمات.. وتحفز.. وفرحة وشوق.

والصوت يدوى، والنار لا تنقطع.

المدفع يشير إلى السماء كمن يحذر من شىء..

ترامى إلى سمع «عبد الجبار»:

- «عـبر الرجـال... رفعوا الأعلام.. اسـتولوا على مسـاحات، ومساحات».

الصوت مازال يدوى.. والنار لا تنقطع.

على وجه عبد الجبار ارتسـمت علامات غـير كل العلامات التى على الوجوه الأخرى.

اتسعت حدقتا عينيه بشكل مخيف... نقطة سوداء لمعت أمامها.

تحركـت فيه - هو - شـبكة معقـدة من الأعصـاب.. وتوترت، وتراخت.

وتحركت - بسـرعة - يداه، وقدمـاه، وكل عضلاته. ومال قليلا للأمام على مدفعه، وصوبه بكل كيانه.. صوّبه.

أطلــق عدة طلقات أمــام الطائرة.. أطلق الطلقــات أمامها بكثير.. أمامها مباشرة.. أصيبت.

إنها تحترق.. تتهاوى.. تسقط.

هتف.. وهتف كل أفراد الموقع، المدافع زغردت.

قفز الطيار من طائرته المتهاوية..

الصعيدى يردد! إنه ضيفى أنا.. ضيفى أنا.

ويتجه ناحيته.. خطوة.. خطوتان

الصوت مازال يــدوى.. والنار لا تنقطع.. وبقية الطائرات تهاجم الموقع.

«عبد الجبار» مازال يجرى.. عبد الجبار بلا رأس.. إنها شــظية أطاحت برأسه تماما.. جسده بلا رأس.. لكنه يتحرك!

خطوة.. خطوتان، ورأســه يتدحرج بجانبه، وقد شخصت عيناه إلى الطائرة التى أسقطها.

* * *

رصاصة الخوف

صرخت ناهد!.. صرخت أمها!

فتحت قطة كانت نائمة على أرض الحجرة عينيها..

رفعت رأسها.. نهضت.. تثاءبت.. مطت جسمها.. أغمضت عينيها وفتحتهما.. اتجهت نحو الداخل بخطوات كسولة.

فى الليل، كان صوت غزلها مع قط الجيران، يملأ صحن الدار، وسمع الناس!

ارتمت ناهد فى حضن أمها، وراحت تبكى؟! بينما كان «طه الكاشف» مازال واقفا وقفة خشوع وحزن.. لكنه كان يشعر بشىء من الاعتزاز والبطولة.

– مات أحمد يامه؟!

– مات يا بنتى، وكلنا هنموت.

اقترب «طه الكاشف» من ناهد فى حذر، وألقى بهذه الكلمات:

– أحمد شهيد يا ناهد، حد يطول! ياريت كلنا نموت زيه.

لم يكن فى قرارة نفسه صادقا فى هذه العبارة الأخيرة! فالحياة غالية.. هكذا أفصحت عيناه المتطلعة فى البنت.

* * *

ليته عاد!. بل ليته كان هو الذى أبلغها، أن «طه الكاشف» هو الذى مات؟! أو حتى ليته عاد ولم يتكلم.. عاد أخرسا.. أو مكسور الرجل، أو الذراع.

لكنه مات!

مـات، تعنى أنه لن يعود إلى عالمنا هذا، ولن يكون بيننا جسـدا، وقبل أن تكمل جاءها صوت من داخلها:

- هذه كلمات لا تدل على قوة الإيمان يا ناهد.

فاستسلمت!

- عارفه.. عارفه!

وتمر الأيام.. تمضى ولا تعود.. تماما كما ذهب أحمد.. لكن...

لكـن ليتها هى التى ماتـت! وهل هذا ممكن؟! نعـم يمكنها أن تموت.. تنتحر، برغم أن هذا كفر.. كفر يا ناهد.

- عارفه.. عارفه!

كان الحبيـب، الخطيب، قد تركها يوم انتهـاء إجازته، واتفقا سـويا على موعد الفرح.. الحنة فى يـوم.. والدخلة فى يوم.. والفرح سيكون حتى الصباح.. أضواء، ورقص، وغناء.

نعم بعد أسـبوع سيحط الخجل على وجه ناهد، ويصنع من خدها طمطماية!

كان الاتفاق أن يذهب أحمد لوحدته، ويحصل على إجازة، ويعود بعد أسبوع، ويكون الفرح يوم الخميس، والقائد لن يمانع فى ذلك.

عندما التقى بها فى الليل فى دارها، أكد لها أن الفرح سيكون يوم الخميس.. ويوم الخميس ليس ببعيـد.. ومع الفرحة غطاهما الحب فى تلك الليلة حتى جاء الصبح.

سافر أحمد وهو يحلم، كما تركها تحلم.

* * *

أسبوع، وأسـبوع.. ولم يعد أحمد صاحب الوعد.. ذلك أنه كان قد أبرم وعدا سابقا لحبيبته الأخرى؟!

الأفـراح تمـلأ القريـة كلها، فالجيش قـد عبر قناة السـويس، ورفرفـت الأعلام المصرية على أرض سـيناء، وهنـاك تحطمت قلاع وانهدمـت حصون، والجنود المصريون هم من فعلوا ذلك، وأحمد بين هؤلاء يا ناهد ليوفى بالوعد!

– عارفه.. عارفه!

الخـوف كالطيف! سـاعتها برق أمـام عينيها! لكنهـا أبعدته بسرعة، ولم تسمح لنفسها حتى أن تخاف على أحمد.. وهل يمكن أن يحدث له مكروها؟ إنه كالسبع! رجل ليس ككل الرجال!

وتفرح ناهد مع الفرحين، وتزغرد.

ثم هاهو «طه الكاشف».. يأتى اليوم ويبلغها أن أحمد مات.

– إزاى عرفت يا طه؟

– كنا مع بعض.

– وإزاى عرفت إنه مات؟

– شُفته بعنيّه.

– شُفت إيه يا طه؟

وقبل أن يجيب، قالت بعصبية:

– إزاى يا طه.. بقولك إزاى؟

تنهد «طه الكاشف» وتقمص شخصية الراوى. ونظر بعيدا، وقال:

– أول ما عدينا.. كان كل واحد مشـغول بحاله.. كل واحد قدامه غرض رايح عليه.. كل واحد يهجم وينفذ مهمته.. يا قاتل يا مقتول!

سكت قليلا وأردف فى هدوء:

– كنا فرحانين يا ناهد...

قبل أن يكمل قالت:

– عارفه.. عارفه!.. بس كمل.. قول إزاى مات؟

– أنا نفسى ما أقدرش أعرف أنا قتلت كام واحد! مش هتصدقى الظابط بتاعنا كمان مات.. بس إحنا قتلنا كل اللى كانوا فى الحصن، لكن رصاصة من واحد منهم ركبه الخوف والفزع جت فى أحمد، ووقع شهيد.

ويبكى «طه الكاشف».. وتطول ناهد.. وتقول الأم من خلال دموعها:

– يا ولاد مش بالشكل ده.. خللى عندكم إيمان.. عشان بلدنا، كل شىء يهون.. فيه كتير غير أحمد ماتوا.. علشان بلدنا تعيش.. والناس برده تعيش.

ويمسح «طه الكاشف» دموعه، بينما تنهمر دموع ناهد، مسلمة بما حدث:

– عارفه.. عارفه!..

* * *

هى تعرف، لكن أمها لم تكن تعرف ما حدث بين ابنتها وبين أحمد.

* * *

وتمر الأيام.. والأعمار بيد الله.. وناهد مريضة فى فراشها.. ذابلة مصفرة الوجه.. وسحر.. وحجاب.. ووصفات للتداوى.. كلها لا تداوى!

«طه الكاشف».. ابن القرية.. عاد فى إجازة، وذهب إلى بيت ناهد

ليطمئـــن عليها، قلبه يرتجف! يتمنى أن يراها بخير.. حزينة، ولكن ليس كيوم أن حكى لها ما حدث.. فلقد مر على هذا اليوم ثلاثة أشهر.

– لسة زعلانة على أحمد يا ناهد؟

لم ترد وإنما نظرت إليه نظرة ثاقبة ذات معنى!

– ماتزعليش.. دى حرب! أنا عـارف إنكم كنتوا هتعملوا الفرح بعد أسبوع من يوم ما سافر آخر مرة.. لكن..

قطع الحديث صوت بكائها، ونظرت إليه بعين مستطلعة، فأكمل:

– بقول إيه....

بتقول إيه يا طه؟

بقول ولو إن الكلام مش وقته، ولا مناسبته!

– هو إيه الكلام ده؟

– قصدى يعنى، أنا من زمان.....

– من زمان إيه يا طه.. اتكلم!

– من زمان وانت غالية عندى قوى يا ناهد.

بقول.. يعنى لو توافقى إنى أبقى مكان أحمد يا ناهد؟

سكت برهة .. ولما لم ترد، أردف قائلا:

– خايفة مـــن كلام الناس؟ مش كده؟ أحمد كان صاحبى وأخويا.. إنما.. إنما لازم نرضى باللى كتبه ربنا.

نظرت إلى الأرض ولم ترد! فاستطرد:

– صدقينـــى.. من يوم ما وقعت عينـــى عليكى.. وأنا.. وأنا بحبك يا ناهد!

ســكت قليلا، ونظر إليها ليرى وقع كلماتـــه، وأراد أن يلاحقها فقال:

– اتكلمى.. قولى إنك موافقة.

– مش ممكن يا طه!

– ليه مش ممكن؟ دا أنا ابن عمك، وأولى بيكى من أى حد.. وكمان بحبك!

أحمد أدى واجبه.. واستشهد زى غيره كتير.. أنا كان ممكن أنال الشرف ده لكن ربنا أراد كده. وأنت لسة صغيّرة، ولازم تتجوزى فى يوم من الأيام.

– مش هيحصل يا طه!

– ليه يا ناهد؟

– أرجوك، سيبنى فى حالى، أنا مش قصدى أجرحك.. دى أى بنت تتمناك.. إنما... قاطعها قائلا:

– إنما إيه بس يا ناهد؟ قوليها بصراحة.. قولى إنك مش بتحبينى.

– صدقنى، أنا دلوقت مش عارفة أنا بحب مين.. ولا عارفة أعمل إيه!

– قولى كلمة.. وافقى.. يا ريت توافقى، أو حتى توعدينى، ما أنا برده عملت اللى عليه فى الحرب.

– أنا مش قصدى يا طه.. افهمنى!

– ياريت أقدر أفهم أى حاجة من اللى انت قولتيه! مفيش على لسانك غير مش ممكن.. مش هيحصل.. سيبنى فى حالى.

– اقولك إيه بس.. ولا إيه!

– قولى اللى أنت عاوزة تقوليه.. أنا سامعك أهوه.

– طه!..

- أيوه يا ناهد!

ترددت قليلا ثم انفجرت قائلة:

- أنا مش...

وانخرطت ناهد فى البكاء قبل أن تكمل.. وتدخل أمها لتقول:

- يا ولاد أنا مش قلت كفاية بقى..

كتمت ناهد كل شـيء.. الكلمـات، والنظرات، والدموع، وأخفت وجهها فى كفيها.

أما طه، فقد شرد ببصره بعيدا..

من بـين الدموع نظـرت ناهـد إلى قطتها السـوداء، وهى تدخل خلـف الأم، ومن حولها ثلاث قطط تحاول اللحاق بها.. والوصول إلى أثدائها!

* * *

شعبان المصرى

– إيه اللى جابك يا شعبان يا أبو سريع؟

نظر شعبان إلى الرقيب «وهدان» ولم يرد، ثم عاد ينظر إلى الرمال أمامه.

– ما ترد يا عسكرى.. هتقول جى علشان تحارب.. مش كده؟

همهم شعبان وأجاب باقتضاب:

– أيوه.....

لكن الإجابة لم تكن شافية للرقيب وهدان.. فقال:

– الـكلام اللى أنا سمعته عنـد القائد مش داخل دماغى.. دا إحنا بلديات يا شعبان!

– أهو ده اللى حصل.

– إنت خايف يقتلوك فى البلد وتموت فطيس..؟

أثارت الكلمات الفتى شعبان.. فانتفخت عروقه.. وتململ غيظا.. لكنه كتم كل هذا وهو يسير بجوار رقيب الفصيلة الذى خرج من عند القائـد منذ لحظات.. ونفذ ما أمره القائد، سـلمه سـلاحه، وصحبه إلى ملجأ تحت الأرض.

كان الجندى شعبان متغيبا عن وحدته منذ أكثر من عام.. وهو من بلدة الرقيب «وهدان» نفسها، فى قلب الصعيد.

وكان مـن الممكن أن يكون الصمـت بديل هذه الكلمات التى تجرى بـين وهدان وشـعبان. ولكن كيف يمر هذا الحـدث، وتطويه صفحة

الزمـن دون أن يتبين صاحبنـا «وهدان» حقيقة معـدن أحد جنوده! فالمعركـة آتية لا ريب فيها، ربما بعد سـاعات أو لحظات وسـوف يتغير كل شيء على الأرض. وقد يموت الولد! دون أن يعرف الرقيب وهدان حقيقة ما الذى جاء به، بعد هذه المدة الطويلة..

هل هو فعلا جاء ليحارب، أم إنه هارب من الثأر فى بلدتهم؟

وهـو يعرف ما يدور من أحـداث بين عائلة أبو سـريع، وعائلة الهوارة.

فى إصرار قال له:

- ساكت ليه يا عسكرى؟.. ما ترد.

- أنا مش جبان.. أنا ما بخافش.

- أمال جيت ليه دلوقيت؟

- ربنا هوه اللى يعلم..

قالها شـعبان وتنهد.. ثم راح يمسـح عن سـلاحه حبات التراب العالقـة، بينما ظـل الرقيب وهدان يلقى بالأسـئلة على العائد الذى أفلت من عقاب تغيّبه طوال هذه المدة!

نظر شعبان إليه نظرة مستسلمة، وقال مستنكرا:

- إنت تعرف إن شعبان ممكن يخاف..؟

- يعنى إنت جاى علشان تحارب..؟

- والله جى علشان أحارب..

عاوز تعرف أنا ليه عملت غياب؟

أصـل أنا كنت زهقـت من قعدة الموقـع.. كل يوم بيفـوت يقولوا حرب، ومفيش حرب.. وإنت عارف التار اللى بينا وبين الهوارة..

تعرف يا شاويش وهدان.. كان عازز عليّه قوى إنى أموت من غير ما أموت حد..

– إزاى تموت حد..؟ دا إنت اللى عليك الدور!

– علشان كده كنت عاوز أموت واحد منهم قبل ما أموت..

ثم تنهد فى طيبة، وأردف:

– لكن بقى اللى حصل..؟

– إيه هو دا اللى حصل..؟

بحركـــة لا إرادية اقترب الجندى من الرقيـــب وهدان.. وبصوت منخفض قال:

– من كام يوم.. كنت قاعد فى غيط القصب اللى فى أول البلد.. معايا البندقية وناوى على الشر.. ناوى أقتل قبل ما يقتلونى. وفجأة لقيت صوت ورايا، بصيت.. مشفتش حد، بس سامع صوت حركة عيدان القصب.. قلت: مين هناك؟

رد قال: ارمى سلاحك أحسن أقتلك.

قلت: مين هناك؟

قاللى: أنا أبوك محمد الهوارى..! ارمى سلاحك علشان أكلمك.

وطبعا كان المفروض يطخنى..

وظهر بين العيدان.. لكن ما كنش فى عينه شر..

كان بيبصلى بطريقة، عمرى ما حســيت بيها حتى فى عينين حد من عيلة أبو سريع.

حط إيده على كتفى وقاللى: يا شعبان متخافش من الهوارة.. إنت مش هتموت على إيد حد منهم.

قولتله: ليه..؟ مش فيه تار..! واللا خايفين؟

قال: « أنا راح أقولك سر يا شعبان.. أنا كان ممكن أقتلك دلوقيت لكن إزاى.. إزاى ده يحصل؟!

اللى راح تسمعه دلوقيت، متسألش إزاى حصل، إنما يا بنى هى دى الحقيقة..أنا يا بنى اللى عارف الحقيقة.. محدش من عيلتكم اللى قتل «عزام» اللى بناخد تاره.. أنا الوحيد اللى عارف الحقيقة دى.. ودا أصبح سر بينى وبينك.. لو قتلتك أبقى ظالم قوى.. كفاية بقى اللى حصل فى السنين اللى فاتت.. وإنت خسارة تموت مظلوم.. روح يا بنى موت هناك بشرف وإنت بتحارب، ما هو إنت عسكرى.. يا تموت شهيد يا ينكتبلك عمر تانى.

ورجعت.. ساعتها أنا هأقول لأهلى الحقيقة. يالا يا شعبان من هنا على زمايلك اللى بيحاربوا هناك. يالا يا بنى. اعتبر نفسك ابنى.. واحد من عيلتنا.. زى ما انت ابن أبو سريع انت كمان ابن الهوارى. روح يا بنى ربنا معاك».

طأطأ شعبان رأسه.. بينما نقلت كلماته الصادقة صاحبنا وهدان - للحظات - إلى عالم داخل إنسان غير موجود معهم.. وقال متأثرا وغير مصدق:

- ما تزعلش منى يا شعبان.. أنا برضه أخوك.. بص حواليك شوف زمايلك، الظاهر اللحظة اللى كنا مستنينها من زمان قربت.. وباين المرة دى هنعبر بجد.. يالا همتك، شد حيلك.

ربت الرقيب وهدان على كتف الجندى شعبان ثم نهض من جانبه، تاركا إياه يبتلع أفكاره.. وغاب فى ثنايا الملجأ المحفور تحت الأرض..

.و!. تكامل البناء!.. بناء الأجسام.

وراح الضباط يزينون نظرة الجنود ببريق الحماس.. ويحفرون فى أعماق النفوس حكاية الثأر الحقيقى: الموت حق علينا جميعا. الأعمار بيد الله.. الواجب حماية العرض.. وتحرير الأرض.

حبات الرمل فى سيناء- تحت وهج الشمس- كانت تنادى على الأبطال.

لقد سمعها «شعبان» وهى تنادى عليه:

- أنا فى انتظارك يا شعبان يا أبو سريع..!

هكذا قال شعبان للرقيب وهدان عندما عاد وجلس بجانبه.

ويرد عليه الرقيب وهدان مبتسما:

- طبعا عارف واجبك؟

- عارف.. وقلبى حاسس إن إحنا هنعبر، كل حاجة حوالينا بتقول كده.

ومن الخندق الذى يقف فيه يرفع رأسه فوق سطح الأرض، وينظر نحو الشاطئ الآخر للقناة، ويضغط سلاحه بقوة أبناء الصعيد..

مضت ساعات من النهار، وتوسطت الشمس، ومالت نحو الغرب.. وفجأة انفجر الصمت وبرقت فى السماء طائرات مصرية..

وصدرت أوامر الهجوم.

وانتفضت الأجساد من حفرها.. كأنما هى أجساد موتى فى يوم البعث.. كلهم يحاول الحياة، وهو مقدم على الموت!

وتطفئ الأجساد لهيب الثأر فى مياه القناة.. وتزغرد المدافع..

وشـعبان أبو سريع.. بين الجنود واحد منهم.. نسى أنه من أبناء أبو سريع أو حتى من أبناء الهوارة، بل ونسى أنه شعبان أبو سريع..

كل الذى خطر بباله أنه شعبان المصرى..

وارتفعت الراية فوق الشاطئ البعيد القريب..

عبر المصريون قناة السـويس.. وأتـوا بالنصر من بين فك الذئب..

هدية لمصر، فى عز النهار..

أخذوا بالثأر، والشمس تشهد على ذلك..

* * *

الأعلام الغارقة

أيتها الرياح.. اسمعى هذه الكلمات.. ادركيها أو لا تدركيها فهذا ليس مهما!

بثيها فى أى مكان، أو حتى فى كل مكان.

أنا أعرف أنك هوجاء لا تعى شيئا، فاحملى كلماتى لكل البشر على الأرض .. كل الطيور فى السماء .. كل الكائنات فى باطن الأرض، وأعماق المحيطات.. أنا ذاهب إلى مصيرى.. ومصيرى هو الموت، أو الضياع..

لا .. لا .. بل هو مجهول مجهول !

قرأ «دافيد إلياهو» هذه الكلمات التى كان قد كتبها – منذ لحظات – وهو مستلق على السرير فى إحدى المستشفيات المصرية. يكاد لا يقدر على الحركة بسبب ذلك الجرح فى صدره. ثم نظر إلى سقف الحجرة وكوم القصاصة التى قرأها فى يده وألقى بها فى سلة المهملات بجانبه.

تملكه إحساس بالضآلة.. دخلت عليه الممرضة التى كانت مكلفة بالعناية بأمره، أومأ لها، ولما اقتربت منه سألها بالإنجليزية:

– هل يمكن أن أكتب لخطيبتى فى روما؟

أجابت بالإيجاب.

بوجه شاحب ابتسم بصعوبة، وراح يكتب..

١٠ أكتوبر ١٩٧٣م

«حبيبتـــى أنينـــا كنت أتمنـــى أن أقول لك إننى بخـــير، لولا أنه يحزننى ويشـقينى أنـــك تنتظرين. وقد يطول انتظـــارك فحبيبك قد لا يعود.. وساعتها يضيع الحلم.. إذ يبدو أن جرحى شديد الخطورة.

إننى أكتب هذه السطور ولا أدرى إن كنت سأكملها أم لا. إن الرؤى التى تسيطر علىّ قاتمة ســوداء.. والأمس سيظل شبحا يطارد روحى إلى الأبد..

لا أســتطيع أن أصــور لك مشــاعرى، أو أصف حالتـــى، أو حالة زملائـــى.. فلم أكن وحدى بـــل كان حولى كثيرون، ومـــع ذلك فإننى أســتطيع القول إننى كنت كفأر وحيد فى مصيدة! وقد يبدو ذلك شيئا مضحكا، لكن صدقينى أنه – أيضا – كان شـيئا مأساويا، لقد انشغلت بنفسى عن زملائى وعن كل ما حولى.

وقبل أن أســتطرد فى وصف هذا اليوم.. دعينى أذكر لك الحديث الذى كان ســببا لنهايتى دعينى أذكر لك كيف – وقف قائدى – يوم وصولى للجبهة وسط الجنود وقال :

– «أنتم كما ترون فى حصون لا يمكن لقوة أن تدمرها، ولا يستطيع أحد أن يقترب منها.. فهذه أسلاك شائكة، وتلك تجهيزات هندسية، ودوائر كهربائية للإنذار، وألغام، وحفر، وسواتر.. و.. و.. كل هذا تغطيـــه كمية هائلة من نيران جميع الأعيرة. ذلك علاوة على دباباتنا وطائراتنا وصواريخنا تلك التى تعمل عند أى إشارة، وفى لمح البصر».

أعجبتنى الكلمات، وألهبت مشاعرى، وترك منظر القائد واعتزازه بجيشـــنا أثرا سحريا فى نفســـى، وفى نفس زملائى. والحقيقة إننى أحسست بأنى سأعيش مغامرة لذيذة أشبه برحلة صيد.

كنت أقضى الساعات مع الزملاء فى موقعنا على قناة السويس - نطل على الضفة الغربية، فلا نرى إلا بعض أشجار تتناثر على الشاطئ فى شريط ضيق، وخلفها صحراء فسيحة، مترامية الأطراف. بين الحين والحين، كنا نلمح جنديا مصريا، ولا أنكر أننى - ساعتها - كنت أشعر بالسكينة والاطمئنان، وأحس أن قادتنا يقدرون الأمور بواقعية وصدق.

كانت الشمس خريفية الأشعة، والنسائم تهب فى المساء فتحمل إلى الأنوف ذرات من مياه القناة، فتنعش الذكريات فى النفس فأتذكرك وتطالعنى صورتك، فيحن قلبى لقربك. ويبدو لى وجهك وهو يترجرج على صفحة الماء تظل منه عيناك الزرقاوان.

وطابت الأيام، وصفت الإقامة فى هذا المكان. إلى أن جاء اليوم الذى كنت أحدثك عنه إنه يوم الغفران.. وهو وإن كان عيدا لشعبنا إلا إنه كان - بالنسبة لى - شيئا آخر. لم يكن يخطر ببالى، أنه سيمر على هذا النحو أو تلك الصورة. يوم لم أحسب له حسابا.. لا أنا ولا حتى قادتى.

خدعتنى شمسه ونسائمه، وكدت فى لحظة - طويلة - أحسبه لا ينتهى. ذلك أننى انتهيت فيه.

أن نموت بسرعة، فذلك أمر قد لا نشعر به..! لكن أن نرى أمام أعيننا تحولات تعنى أننا سنموت، فإننا نمضى فى هذه الأثناء إلى عوالم أخرى غير عالمنا، وغير العالم الآخر .

لقد كنت أعرف أنه ليس للمصريين طائرات جسورة! وكنت أعرف بيقين أن أمامى مياه قناة السويس هادئة ساكنة، لا حركة فيها إلا لبعض الأسماك الصغيرة، التى كنا نصيدها أحيانا.

الشـجيرات على الضفة الغربيـة للقناة جافـة أو ذابلة، تعكس صفرتها لون الصحراء، وتوحى بالتوقف والركود.

لم أر فى حياتى طائرة مصرية، ولم أشاهد للمصريين دبابة واحدة، وفجأة.. ومضت فى السماء طائراتهم، وأحالت مواقعنا إلى جحيما.

فجـأة.. زأرت مدافعهـم وبصقت فى وجوهنـا، وازداد الجحيم اشتعالا.

فجأة.. وقبل أن نفيق مما نحن فيه. نظر الموت لنا بعيون جاحظة، وتلفـتّ حولى - بحركـة لا إرادية - لعلنى وقتهـا كنت أبحث عن مخرج، لكننى لمحت الجحيم يمد ألسنته فى كل مكان.

حتى مياه القناة الهادئة أظهرت ثورتها، وعلا الموج فيها، وغطى سـطحها طوفان عظيم من الدبابات، والمدافع، وأخذت تموج بالحركة تكاد مياهها تشتعل!

الثوانى بطيئة قاتلة..

العجـز أمام الخطر غير المتوقع .. فظيع ومدمر.. لاسـيما إذا كان هـذا الخطر هو ما يؤدى إلى الموت المحقـق. الحديد والنار، وطلقات الرصاص، والأصوات الملعونة تطوقنى.

العيون التى تشـع ما هو أقوى من النار.. كان إصرارها على قتلى واضح.

كل هـذا الزحف قادم مـن الغرب لقتلى، قتلى أنـا وحدى! وأنا ضعيف أمام هذا الهول الكاسح.

نعم كيـف أواجه هذا الرجـل الأسمر المتوقد النظـرات، الصلب العـود، رقبته كجذع شـجرة مطمورة متحجرة منذ آلاف السـنين.

صرخته «الله أكبر» تفتت كل عزيمة، وتُذهب كل شجاعة. صدقيني يا حبيبتي. إنني في تلك اللحظة فقط تذكرت أن لهذا الرجل حضارة.. إنه فرعون ذاته، لم تتغير صورته كما يذكرون لنا في التاريخ.

إنما أنا - الحي الميت - كنت أعيش كابوسا مخيفا رهيبا، وكأن ما يدور حولي ضربا من الخيال، لم أصدقه أنا نفسي في بادئ الأمر، لكنني شعرت بخوف حقيقي، وأحسست أن الأرض لا تستقر تحت قدمي، أو أنها غير راضية عن وجودي فوقها، فهي تغلي وتثور كبركان. أحسست أنني غريب على المكان، بعيد بُعدا شاسعا عن الطمأنينة والنجاة.

حاولت.. حاولت أن أفعل أي شيء، لكن قواي انهارت، ومحاولاتي لم يحالفها إلا العجز، لم يكن أمامي مفر إلا التسليم. لكن هذا أيضا لم يتح لي، ولم أتمكن من إعلانه، ولم أشعر إلا وأنا هنا في هذا المكان الذي أكتب لك منه. وبالطبع قد أدركت - يا أملي الضائع - أنني أصبت، وأسرت، وليست هذه هي قضيتي؟ إنني أشك في مواصلة الحياة، وحتى إن نجوت من جرحي الذي أرقدني اليوم، فإن صورة هذا الجندي المصري تطاردني كمارد جبار.. لا أغمض عيني إلا ويطالعني شريط سينمائي مفزع، وسوف أبقى يا حبيبتي فاقد الثقة فيما أسمع في بلدي - إسرائيل - وهل يطيب العيش لإنسان في وطن لا يشعر فيه بالثقة والأمان؟!

إن انشطار النفس وتبعثرها أقوى من الموت ذاته؛ إذ إن الموت أمر حتمي وحالة طبيعية، لكن النفس المعتلة أدعى إلى الشفقة، وأوجب للرحمة والمواساة. وأنا لا أقصد أن تتحملي كثيرا من آلامي،

وإنمـا أكتب لك لأنك جزء من ذاتى، تلـك التى تركتها تتداعى على الورق إحساسـا وتعبيرا، فقد أسـتريح بالموت، أو أموت فأستريح، ومن يسـتطيع ساعتها أن ينقل جثمانى؟ أهو أبى ذلك العجوز الهرم؟ أم أمى التى ليس لها سواى؟ سوف أكتب لهما رسالة قصيرة، لن أقول لهما سوى: إننى بخير!

آه يا «أنينا» لو أنهما بقيا فى «نيوشاتل» يستمتعان بالحياة هناك، بـدلا من مـزارع البرتقال فى يافا التى هى نهـار أبى.. وبدل مصنع التغليف الذى تعمل فيه أمى.. وبدل ما صرت أنا إليه.. إنه قدر أسرة «إلياهو» ولا أحد يملك تغييره.

ليتنى أسـتطيع أن أكتب إلى الذين يهاجرون إلى إسرائيل تخدعهم وسـائل الأعلام، وتمنيهم بعالم وردى، وتؤكـد لهم أن الجيران فى سُـبات - وما هم كذلك - فالسـلاح والوهم والشـر. أعمـوا الأبصار وخدعوا العقول، وصوّروا المستحيل.

لن أنسـى يـا صديقتى منظـر زميلى الذى كان يعمـل على جهاز اللاسلكى. والذى وجدته فجأة يردد كلمتين اثنتين، ولم ينطق بكلمة سواهما. كانت طريقته فى النطق بهما هستيرية:

- المصريون عبروا..! المصريون عبروا.!

حتى عندما ترك الجهاز وابتعد عنه ظل يردد الكلمتين بالهستيريا نفسها، وفقدت وعيى على صوته الذى مازال يرن فى أذنى حتى الآن.

آه.. لقد سمعت بأذنى، ورأيت بعينى..

لقـد تركت قلمى يكتب لك يا حبيبتى كل ما دار بفكرى اللحظة، بعدمـا دارت بذلك الفكـر المجهد أطياف تلك الأيـام التى قضيناها معا، والتى تضيع حلاوتها مع آلامى.. أو هى تزيدنى الآن ألما.

كنت أتمنى لو أستطيع أن أنسج من وهمى شراعا.. وأبحر إليك على زورق حبى.. لكن أى ريح ستنقلنى. أى ريح سترددد أغانى.. ولست أسمع منها سوى أنها تتحدانى.. تمزق وتغرق أعلامى.. فشراعى وهم.

وهل أفعل مثل قادتى..؟!

صحيح أننى مازلت حيا.. لكن من يدرى؟

فربما لا أعيش.. وربما أعيش حياتى القادمة وكل أيامها يوم غفران.

ابق يا حبيبتى حيث أنت.. ولا تنتظرينى..»

ثم طوى «ديفيد» الوريقات، وأعطاها للممرضة قائلا:

- أرجو أن تهتمى بأمر هذه الرسالة، فخطيبتى ليست فى إسرائيل.

ثم أغمض عينيه..!

* * *

كانت لى

الليـــل الهادئ الذى نعرفه، ويعرفـــه كل الناس غائب. وآخذ فى أعطافه النوم بعيدا عنا.

نتحرك فـــى الخنادق المحفورة.. ننظر بعيـــون تلمع فى الظلام! عيون لم تذق طعم النوم منذ عدة ليال.

صديقى «عبد الستار».. على بعد خطوات منى – فى الضوء المتسلل مع أنفاس الفجر – أتبين ملامحه جامدة كبرودة هذا الصباح.

أفراد فصيلتنا يتحركون كالأشباح.. كل منهم يعرف أنه سيعيش مائة عام! الخوف يتبدد عندما تطل بشائر النور.. وكأن الموت لا يأتى إلا فى الظلام..

سألنى «عبد الستار» وهو جالس متحفز فى حفرته:

– هل أجد معك سيجارة؟

فناديته:

– تعال.

نهض وسار نحوى، وعندما أصبح بجوارى، أخرجت علبة التبغ وأعطيته واحدة.. ووضعت واحدة فى فمى.

قال «عبد الستار» وهو يتحسس بندقيته:

– ترى كيف سيكون مذاقها؟

قلت:

– ستعرف عندما تشعلها.. اشعل.!

اقتربت منه أكثر، وأردت أن أشعل السيجارة، ولكنه قال:

- فلتشعل أنت أولا..

تحاشيا للريح الخفيفة ابتعدتُ خطوة واحدة، واستدرت لأشعل سيجارتي، اقترب نحوى الخطوة نفسها.. فحل محلى.

اخترقت رصاصة صدر «عبد الستار»! هذه الرصاصة كنت أنا المقصود بها.

ترنح وسقط على الأرض، وتدحرجت السيجارة من بين شفتيه.

تسرب نور الفجر من بين الأشياء، لاحت السيجارة مستقرة على أرض لا حياة فيها.. تاركة مكانها ابتسامة فوق شفاه تخضبت بالدماء والرمال.

* * *

ابتسامة أمل

فوق رمال الصحراء انعطف الطريق بلونه الرمادى الفضى- كثعبان ضخم - صوب الترعة الواسعة، كأنه ينشد ماؤها العذب. أكثر من ساعة وعجلات أربع تدور بسرعة فائقة تلتهم الطريق، سيارة تقل مجموعة من البشر، ساعة الظهيرة، تسبقهم أخيلتهم إلى شوارع المدينة الخاوية، وتتجول بين بيوتها المهدمة أو المهجورة. أفكارهم تطوف فى سماء الماضى تعانق الذكريات. بينهم شاب أسمر الوجه، شارد الذهن، ساهم النظرات، قاصدا بيته الذى نشأ فيه، وتربى بين جدرانه، بيد أنه كان يدرك أن هذا البيت لم يعد ذلك المكان الفسيح الذى كان يمرح فيه أيام الصبا، ولن يكون إلا بعض حجرات أصابها الرصاص فتحطمت نوافذها، بينما بيت جارهم «عم محمود» قد أصيب بقنبلة فلم يبق منه شيئا يذكر.

تزاحمت فى خياله صور الخراب والدمار، لكن ابتسامة - رغما عنه - تسللت إلى شفتيه، واخترقت نظراته المتعجلة نافذة السيارة ترقب الأفق، ذلك عندما تمثلت له رفيقة صباه، صغيرة حلوة، وعلى الصورة نفسها التى عاشت فى خياله، صاحبة الثوب القصير، والضفائر المجدولة، تلك التى كان كلما رآها آتية أحس أن شيئا ما يشده، ويجذبه بقوة إليها، وكلما رآها مبتعدة تمنى لو امتدت يده إلى ضفائرها يجذبها، يستبقيها بجوار قلبه، لكن هيهات هيهات أن يحدث ذلك. فالصلات بين الأهل مقطوعة، والده لا يتحدث

إلى والدهـا، وأمه لا تكف عن الحديـث عن والدتها، وبالطبع لم يكن ذلك الحديث مديحا، ولم يدرك الفتى وقتها سببا لذلك، ولا الصغيرة أيضا.!

السـبب قد يكـون ذا أهمية لدى الأهل، لكنـه لم يكن يعنيه هو أو صديقته، ربما كان هناك تضاربا فى المصالح بين أبيه وأبيها. وربما كان هنـاك توتر فى العلاقة بين أمه وأمها، وأيا ما كان السـبب فقد كانت النتيجة هى التخاصم والقطيعة.

كان علـى الفتى أن يبتعد عن هؤلاء القوم عملا بنصائح أهله. وكان على الفتاة أن تسلك المسلك نفسه، تلبية لرغبة أهلها! لم يكن مسموحا لهمـا أن يتحدثا، وإن حدث ذلك فقد كان يحدث فى الخفاء، بعد أن تتجول العيون فى مآقيها تمسـح المكان.. تتأكد من خلوّه من الأهل المتخاصمين. ولكم درات فى تلك الأيام بذهن الصبى ابن الرابعة عشرة أحلام وأحلام، ولعبت بفكره الأمانى والأوهام، فإذا به يعانقها – فى خيالـه – ويضمها إلى صـدره ويتحدث إليها حبيبـة وزوجة، وهى ربمـا كانت تفكر مثله، كانت تقترب منه تارة تداعبه بكلمة، وتارة تعطيه قطعة من الحلوى، وتارة تشير له بشىء فى يدها وتقول:

– إذا أردت هـذا احضر عندنا وخذه.. ثم تضحك وتبتعد، ويدرك وقتها أنه سوف لا يحصل على شىء، فيضحك لقولها.

كان «سمـير» يـرى صغيرته كفراشـة يجذبها الضـوء فتقترب، وتلسـعها الحرارة فتبتعد – فيحسـبها ترقص – فتهفو لها نفسه، ويطرب لوصلها وجدانه البكر. وكان أحيانا يراها كغزال شارد يتنقل فى خفة، ولكن حركته لم تكن تخلو من خوف ووجل.

كانت «سحر» صبية، جميلة، شقية، مرحة، تقفز هنا وهناك، وهو يرقبها من بعيد فيطرب لذلك فؤاده، وتتعثر قدماه على درب الحب.. تبادله التحية والكلمة.. فيحلم وقتها.. أنها ستصبح عروسه فى المستقبل.. وستكون أبرع وأروع وهى فى ثوب الزفاف. ويمنى نفسه بأنه سوف يقص عليها خواطره وأمنياته وأحلامه، ولن ينسى أن يحدثها عن أيام الحرمان، وسوف يقول لها: كم كان يود أن يشاركها اللعب، حتى يتاح له أن يلمس يدها، أو تحادثه فيطلع على ما يدور بعقلها، ويفهم ما توحى به عينيها، ويقف على سر نظرتها البريئة الحالمة. هذه النظرة التى كانت بمثابة الشرارة التى أشعلت قلبه وفكره وجسده.

تلك كانت «سحر» التى كان قلبه يدق طربا ويطير لهفة لمرآها أو لسماع صوتها أو حتى لحفيف ثوبها.

* * *

العجلات مازالت تدور، تقل سرعتها فى المنحنيات الصعبة، ثم لا تلبث أن تنطلق مرة أخرى فينطلق معها الخيال سابحا فى عوالمه، يجلب من الأعماق الأيام الفائتة والذكريات الجميلة، ولم يكن يستطيع الفتى أن يبتعد عن دائرة «سحر» بيد أنه لا يقوى أن يتخيل صورتها الآن، فهو لم يرها منذ أكثر من سبعة أعوام، ولابد أنها كبرت وأصبحت عروسا. وهو يذكر هذا اليوم. إنه يذكره جيدا ولن يمحى من ذاكرته. فى ذلك اليوم لجأت إليه وأزيز الطائرات ودوى المدافع يصم الآذان، والحرب قد وضعت أوزارها فزاغت الأبصار واستحال الفكر كله يحلق، يستجلى ما حدث.

ويتساءل الجميع: وماذا سوف يحدث؟

لجأت إليه فى هذا اليوم دون أن تتأكد إن كانت عيون الأهل تراها أم لا وقالت له:

- إنها الحرب.. الحرب يا «سمير».

كـم كان يود من قبـل أن تحادثه فيهش إليها، لكنه لم يفعل ذلك - فى تلك اللحظة - فقد كان سـارحا بعقله، سابحا بفكره فيما يدور حوله، ودون أن يرفع إليها بصره أجاب:

- هل تخافين؟

- بل أريد أن نفعل شيئا أنا وأنت.. أى شىء..!

- هناك الجيش.

وسـاد الصمت مرة أخرى، لكن صوت الرصاص كان لا يزال يصفر فى كل مـكان. نظرت إليه لكنه لم يدر سـاعتها أكانت نظرتها تلك نظرة اليائسـة أم نظرة الواثقة، أكانت تستطلع المجهول فى شرود، أم إنهـا لا تعـدو أن تكـون طفلـة لا تملك من الأمر شـيئا، وذهبت واختفت. ودبت على المكان حركة سريعة ذات وقع فوضوى، فتبدلت المشاعر، وتغيّر لون الحياة! الحماس.. التدافع.. الترقب.. التسابق.. الدمار، ويترك الأهل ديارهم، أو ينقلون إلى أماكن ومدن غير مدينتهم الهادئة، تلك المدينة ذات الأشجار الكثيرة والمبانى الرائعة الجميلة.

ذهبت «سـحر» مـع أهلها إلى المدينة الكبـيرة الآمنة، ذهبت إلى القاهرة، أما هو فإنه رحل مع أهله إلى قرية صغيرة، ومنذ هذا اليوم لم ير أحدهما الآخر حتى هذه الساعة.

***

العجلات مازالت تدور.. وكأنها تصفع الطريق، أو ربما كانت تقبله بصوت مسموع.. أوهكذا خيل إليه، وهو مازال يعيش حلما فى الماضى.

الأفكار تتولد وتتناثر فى فكره أحداثا، وتتوارد إلى الذهن صور عديدة ولدتها قسوة الحياة، والغربة، والبحث عن الذات بعد ترك الديار.

هدأت حركة العجلات، وبدأت حركة أخرى داخل السيارة.. كل راكب يتململ فى مقعده يستطلع ما حوله، كل راكب يبدو عليه أنه يريد أن يقول شيئا.. استفسارا؟ سؤالا؟ لكن الدهشة تعقد اللسان. فمنذ زمن لم يأت أحد إلى هنا، لقد تغيرت معالم المكان. أو ربما كانت المناظر تتوالى فتحبس الكلمات، وتنشغل العين، وتختلج داخل النفس أحاسيس شتى.

معالم المدينة تتضح شيئا فشيئا.. الأشجار تتكاثف حولها صانعة سياجا أخضر، المنظر يعلن عن نهاية الرحلة، وقرب الوصول. وتتغير ملامح المسافرين ويفيق الجميع من خيالاتهم يستعرضون ما يقع عليه البصر.

بدأت شوارع المدينة تطل من بين الأبنية والأشجار، تغطيها طبقات من الأتربة، وتتناثر عليها قطع الطوب والحجارة، بعض المتاريس مقامة فى الطرقات.. بيوت مهدمة.. حفر واسعة عميقة من أثر القنابل. دور العبادة قائمة، لكن الشعائر التى تقام داخلها تأجلت لسنوات، أوراق ممزقة لصقت على واجهة إحدى دور العرض عليها إعلان لفيلم بعنوان: «غراميات جنرال».

توقفت العجلات، وخيم السكون، وجاءت عبارة السائق يهنئ الجميع بسلامة الوصول.

برغم أن «سمير» التحق بالجيش وحارب فى صفوفه فإنه لم يدخل بلدته منذ قامت الحرب، إن كلمات «سحر» مازالت ترن فى أذنه، آخر عبارة قالتها: نريد أن نفعل شيئا.. أنا وأنت.. أى شىء.

لكن الحرب قد انتهت، وعاد الأمن إلى مدينتهم مرة أخرى، برغم أن معالمها - شوارعها وجدرانها وأشجارها - مازالت تحمل آثار الحرب. وبصمات القنابل، والرصاص، والعدوان مازالت محفورة فى كل مكان.

من بعيد لمح منزله شاحب اللون، صامدا يشهد مأساة بيت جيرانه «بيت سحر» ويطل عليه وكأنه يواسيه فى محنته، ذلك أنه لم يبق منه إلا جدار واقف، وحول هذا الجدار أكوام من الطوب، وأكداس من التراب، وبعض من قطع الخشب تبدو بين الأنقاض كأنها أذرع غرقى يطلبون النجدة.

توقف «سمير» يتأمل المنظر، وود أن يتحدث إلى تلك الأطلال، لكنه سمع صوت أخته الصغرى تهلل لمقدمه. ودخل المنزل ليتوه فى السلامات ويغرق فى القبلات.

فى الداخل أخذت عيناه تمسح المكان كأنما هو فى مهمة تفتيشيّة.. شىء ما مازال مفقودا برغم وجود الأهل جميعا. راودته رغبه ملحة أن يتكلم، يسأل عن الجيران، لكنه تمنى لو أن أحدا من الأهل تطوع وانبرى يحكى عنهم وعن «سحر». يحكى عنها أى شىء.. وارتقت أمانيه إلى القمة فودّ لو رآها، لكن عينيه استقرت على ركن من أركان الحجرة، وساد السكون. ماذا ستقول له وماذا سيقول لها؟

تداعت كل أفكاره فانعكست على شفتيه ابتسامة حائرة متسائلة، وقبل أن يقول شيئا، بددت أمه هذا السكون مخبرة إياه بما قد حدث بعد عودتهم وأثناء غيابه!

– ما تعرفشي يا سمير.. يا بنى؟

قبل أن يجيب أردفت قائلة:

– إحنا سكّنا الجيران فى الدور اللى تحت!

فى اهتمام رد متسائلا، وهو يود أن يتأكد أن هؤلاء الجيران ليسوا إلا سحر وأهلها.

– الجيران مين؟

– هو أنت مشفتش بيت عمك محمود وإنت جاى؟

– شفته دا بقى كوم تراب.

– عشان كده قلنا نسكنهم لحد ما يبنوه تانى...

– واجب طبعا.

فى اللحظة نفسها استدار ناحية الباب وقد قفزت إلى ذهنه آلاف الصور.. وغاص فى نفسه يحاورها، ويسألها ويمنيها.

أين الخصومة؟ هل أزالتها تلك الأعوام؟ أم إنها الحرب هى التى جعلت النفوس المتنافرة تتقارب، لتتسع القلوب بالمحبة إلى هذا الحد؟ حقا إننا أناس طيبون!

هاهم الأهل قد أظلهم الوفاق، ورفرف عليهم الحب، لكن أين أنت الآن يا «سحر»؟ لقد كنت بعيدة عنى جسدا، قريبة منى روحا، والآن أين أنت؟

أراد أن يسأل أمه لكنه أحجم وغادر الغرفة وهو يتمتم: لقد التقينا أخيرا يا صانعة اللبنات الأولى فى قلبى الصغير.

أسرع إلى السلم وهبط، وأمام الباب راحت يده تدق، ونبضات قلبه على الإيقاع نفسه تدق فى طرب ونشوة! لحظات من الانتظار..

التوقع جعل عينيه تتحركان فى كل اتجاه.. تملكته عصبية.. الثوان القليلة مرت كأنها أعوام.. ثم فُتح الباب.. وكاد كل شىء يتوقف أو أن ذلك قد حدث بالفعل.

الصمت مد أذرعا احتوت الطارق، وغطت عينيه غشاوة، ثم دهشة ثم بسمة. أما هى عندما فتحت الباب فإنها وجدت شابا يقف مشدوها فى صمت، ينظر إليها بلا حساب، وعلى إثر ما رأت من تغير على وجهه، بدأ الصمت يزاحم الكلمات على لسانها هى الأخرى.. طالت نظرتها.. طالت نظرته.. أو هكذا خيل إليها.. أخيرا انفجرت شفتاه عن كلمة.. «سحر»؟

قالها وانتظر أن يأتيه الجواب فيضا من فرحة اللقاء، بيد أنها عرفته عندما ذكر اسمها، فردت متسائلة:

- «سمير»؟

ومدت يدها تسلم عليه.. وتراخت عيناها خجلا، وسيطر عليها ارتباك عفوى، لكنها بددت ذلك بكلمات الترحيب والسؤال عن أحواله. أما هو فقد بدا وكأنه أدرك أمرا لتوه.

لم يكن لشعاع الشمس يوما فى عينيه- هذا البريق!

لم يبهره ضوء كهذا الذى أجبره أن يغمض عينيه.. ذلك أن بصره وقع على خاتم الزواج فى إصبع يدها، يشع منه بريق ذهبى خاطف للبصر!

رفع بصره قبل أن يدرك ما اعتراه، وألقى به فى عرض الشـــارع، فإذا هو فراغ موحش بلا حدود، وســـرح ببصره، فلمح أخته الصغرى تتحدث إلى صبى مستند إلى جزع شجرة، وابتسامة أمل ورديّة تداعب شفتيها.

* * *

الأصداف العالقة

وهل يعشق البحار شيئا قدر عشقه للشاطئ؟! أى حنين ذلك الذى يجيش بالنفس، ويدفعها إلى عالم غريب بعيد لا نهائى، أهو الحنين إلى الوطن، أم إلى الأرض.. مجرد الأرض، أم إلى وجوه الحسان.. أم حتى إلى مرور فتاة أحست بمتابعة العيون لقوامها.. فدبت فيها حياة فوق الحياة.. ودلال فى إثر دلال. اشتاقت العين لرؤية فتاة من أبناء بلدى.. شقراء.. نحيفة القوام، تتحدث بلكنة محببة، وتبتسم لغير هدف! وتلمع عيناها الزرقاوان.. بحب عنيف.. لا تحده حدود.. ولا تمنعه قيود..

وتمضى الأيام.. تخلع شعرة سوداء.. وتزرع مكانها أخرى متوهجة البياض.. وابتسم للشمس فتسخر منى.. وترمقنى بنظرة حادة تجعلنى أتصبب عرقا.. أيكون العالم كله فى حال مثل حالى؟

على طريق الحياة تحبسنا الأقدار فى زنزانة صُناعها غرباء فى عالم مدهش.

الجنود على كلا الضفتين.. كل يواجه عدوه على الضفة الأخرى.. الماء ممتد حولى.. لكن الأمل يبدو شعاعا باهتا يتسلل كل يوم من نافذة صغيرة بتلك السفينة التى أنا عليها.. أتخيل أحيانا ما سوف يدورحولى فى الأيام القادمة.. لكنه على كل حال – لا يعدو أن يكون شيئا من صنع خيالى.. وخيالى مائع.. لا يصنع أمجادا أو بطولات! دائما يصنع صورا عارية، لنساء عاريات.. يتراقصن فى خلاعة..

ودلال! ذلك هو الشيء الذى يغذى أفكارى ويجعلنى سعيدا فى سجنى الغريب.

لو ينهمر المطر.. أو تصرخ الريح!. لو يتخطى فارس مكانه وينتقل إلى الجانب الآخر حيث عدوه، لتحول المكان حولى إلى ساحة تغلى.. ولتفجرت على تلك الساحة براكين تفرغ حمما.. نعم لابد أنها ستفرغ حمما!

وساعتها سأخرج أنا من سجنى.

قد أقنع نفسى.. وأنا فى حقيقة الأمر أقنعتها كثيرا.. إن ما أعانيه فى هذه الفترة أمر طبيعى.. أو هو واجب.. أو هى طبيعة عملى.. وأنا أتقاضى على ذلك أجرا.. أجرا كبيرا.. وسوف أعود ومعى جنيهات إسترلينية أو دولارات.. أستطيع بها أن أحيا حياة كريمة..

قناة السويس ذلك المجرى المائى الحيوى يمتد على الرمال فى غفوة، لا حركة عليه، فلا سفن تجىء ولا سفن تذهب، وفى البحيرة التى تتوسطها سفن احتجزها وقوع الحرب، فبقيت فى مكانها حبيسة تشهد على التوقف، انتظارا للحظة يدور فيها صراع محموم. وهى تقول إن ما يحدث هنا لابد وأن يمتد أثره إلى كل الدنيا! فتلك القناة بموقعها الحيوى تربط بين الشرق والغرب، وعندما تتوقف حركة الملاحة هنا، على هذا الشريان المهم، فإنها تصيب الدنيا كلها. أما عن السفن الواقفة هنا ومن بينها سفينتى، فهى جامدة لا تتحرك يأكلها الصدأ، والانتظار والترقب علامات مرسومة على الأشياء والوجوه.

ومن طول وقفة سفينتى فى المياه علقت بها الأصداف من كل جانب، والتصقت بجوانبها، كأنما تريد أن تستبقيها فى المكان، ولما لا؟ ألن تقوم هنا حرب، وتصبح هى وزميلاتها شهودا على ما يحدث، علها تكون أداة من أدوات كتابة التاريخ، فابتسم البحار وأردف:

– السفن من أدوات كتابة التاريخ، بها يعبر البشر ويسافرون، ويحاربون، إذن فهذه الوقفة التى تؤرقنى، هى فى الحقيقة ضرورة لصنع التاريخ! تجول ببصره ومدّه بعيدا، واتسعت ابتسامته، مستسلما قال لنفسه:

– لابد لكل شاب أن يرصع حياته بمغامرات.. كما هى سفينتنا مرصعة بتلك الأصداف.!

.. سوف تُزال تلك الأصداف.. وتبحر بعدها السفينة فى عرض البحر أو المحيط.. تماما كما ستنتهى هذه الأيام العصيبة، وأعود إلى حياتى.. أسبح فى مياهها.

دلف إلى داخل السفينة وهو يتمتم:

– كل ما يهمنى هو متى سيحدث ذلك؟

فى الداخل نظر إلى مرآة فى قمرته وقال:

– ما هذا الشعور الذى يعترينى اليوم حتى يجعلنى أتحدث إلى نفسى على هذا النحو؟!

فها أنا أتحدث إلى المياه الساكنة المترجرجة فى عناد كعناد الأيام، ورتابة الإيقاع، وأسبح فى عالم يوحى إلى بالأفكار.. الشاطئ البعيد.. يبدو دائما كحلم.. أريد الشاطئ.. لكن المسافة..! آه.. إن المسافة بسيطة.. لكن المراد بعيد..

الأقوام المتنافسون لا أرى ما فى عيونهم.. لكن كل منهم لابد أن يكون فى صدره شعور ما، وفى عيونه رؤية معينة.. وفى عقله خواطر ورغبات يدافع عنها، ويُصر على تحقيقها مهما كان الثمن!

المرفق العظيم أضحى ساحة حرب.. وأمسى سجن غربة، واغتراب.. أنا على ظهر السفينة.. أصيد الأسماك.. وأكتب الخطابات.. وأقبض الدولارات، وأوقع كل يوم على صفحة حياتى.. أننى أتجه إلى النهاية.

يا لها من أفكار.. ولدتها الوحدة والعزلة.. والشوق للمدينة.. والأصدقاء.. والحب.. والنساء.. وكأس تبعث الدفء للدماء.. وقد أكون ذا شأن عظيم خارج هذا المكان! ساعتها قد لا تشغلنى امرأة عن تحقيق حلم عظيم يخدم الدنيا.. لابد أن الصدأ يأكل جسم السفينة الغاطس فى الماء.. والمياه تداعب الجزء العلوى منها كل لحظة تمنيها بقرب موعد الرحيل.. والانعتاق.. أو هو أنا من يتخيل ذلك!

الأعلام فوق السارية ترفرف كأنها تلوح للسحب.. لكن الغريب أن لا شىء يكف عما يفعله.. الشمس.. القمر.. المياه.. الصمت.. كل يؤدى دوره تماما.. وأنا أيضا أفعل ما أفعله، وفى كل يوم أسرح بخيالى، وعندما أتذكر لحظة بعينها يتملكنى الخوف من ذلك اليوم، فقد تدور الحرب المنتظرة، وأنا لست طرفا فيها.. قد تصيبنى رصاصة طائشة.. أو تسقط فوقى قنبلة.. أو طائرة متهاوية.. فأمامى وخلفى ومن كل جانب سيدور القتال وبكل أنواع الأسلحة..

* * *

«كانت الشمس فى هذا اليوم ساطعة، وفجأة.. سمعتُ أزيز طائرات تمرق فوق سفينتنا المحتجزة فى البحيرة الواسعة، أسرعت

بالخروج إلى سطح السفينة أنظر فى السماء، فإذا الشمس قد مالت ناحية المغيب.. لكن الطائرات كانت قد عبرت قناة السويس بأسراب كثيرة نحو الشرق.. وأدركتُ أن حاجز الصمت قد تهتك.. وأنه علىّ أن أغيّر تفكيرى.. قبل أن يدور عقرب الثوانى فى ساعتى دورة كاملة.. ارتفعت ألسنة اللهب فوق رمال سيناء.. بعد هذا لم أستطع متابعة ما يجرى.. فما بين ذهول المتفرج، وخوف الهالك.. مضت ساعات وأيام.»

* * *

وقف البحارعند مقدمة السفينة كما يفعل كل يوم، بعد أن طال به المقام فوق هذه البقعة من الكرة الأرضية، وراح ينظر إلى الماء حينا، وإلى جانب البحيرة حينا آخر.

فإذا به يلمح جنديا طافيا فوق سطح الماء، يحاول السباحة بصعوبة ويبدو عليه أنه يوشك على الغرق، أسرع ومعه رفاقه من بحارة السفينة وتمكنوا من انتشاله، وسلموه إلى الصليب الأحمر وهو يهذى بلغة شرقية غير مفهومة دون أن يدرك أحدهم أهو مصرى أم إسرائيلى؟!

* * *

إن أمورا كثيرة جرت وحوادث كثيرة تتابعت.. تغيرت خرائط.. ودفنت جثث..وبعث تاريخ، ودب نشاط فى الإنسان الذى يعيش على كوكبنا.

بعد أيام بدا كل شىء وقد هدأ.. لكن الماء حول سفينتنا المحجوزة كان ما يزال يغلى ويفور..

أنا فرنسى الجنسية.. ولا دخل لى أو لسفينتى فى تلك المعركة..

إننى الآن أذكر ما كان يجرى.. وأضحك.. وأنا أقف فوق سفينتنا.. بينما هناك قاطرة مائية تسحبها خارج مياه البحيرة والقناة.. حيث البحر.

الشاطئ هو الأمل.. لكن البحر العريض هو الموصل إليه..!

* * *

ضِفافٌ مِن لحْم

التجاعيد فى وجه جدتى غائرة، تصنع فى وجهها أخاديد وقنوات، وبرغم أنها تعدت أعوامها المائة، فإنها لاتكف عن ذكر جدها الأكبر، ويحلو لها الحديث عنه، وعن الحكايات التى كان يحكيها. وهى تتفاخر وتتباهى بأن جدها الأكبر هو الذى حفر قناة السويس!

وتقول إنه بعد أن عاد سالما - جِلدا على عظم، من شدة الجوع، وقسوة العمل، وغلاظة قلوب من يشرفون عليه! - كان يقص على أهل البلدة، وعلى الأبناء والأحفاد حكايات غلب الموت على نهاياتها! ومع ذلك كان حديثه يشيع الحماس، ويبعث فى نفوس المستمعين الاعتزاز بما تم! كان يصور لهم كيف أن الرمال كانت تستقبل الموتى فى كل يوم، وتصبح الأجساد مكونا لها، هكذا كانت جدتى تقول. وهى تضيف أن الفرحة كانت تتألق فى عينيه عندما كان يتذكر كيف أن القناة وقد غمرتها المياه الزرقاء، وطفت عليها المراكب والسفن من المحروسة، ومن بلاد بره! بدت عرسا ومهرجانا عظيما. أما جدتى فإن فرحتها تكمن فى أنه كُتب لجدها الأكبر أن يعود، ليحكى الحكايات عن الغرائب التى جرت على ضفتى القناة، وأنه عاد ليكون مثواه فى مكان آخر فى صعيد البلاد، قريبا من الأهل والأبناء. وتتوالى الأيام وجدتى تحكى ولا تمل من الحديث عن جدها الأكبر.

منذ أيام حل الخريف وبدت نسائمه، وظهرت فى السماء قطعان السحب البيضاء تتوالى عابرة من الشمال إلى الجنوب، باعثة

فى النفس شعورا بالسكينة، وإلحاحاً للذكريات. اليوم وفى الصباح - ككل صباح - دخلتُ غرفة جدتى، ألقيت عليها التحية، وقبَّلت يدها، قالت وهى تربت على ظهرى، عندما تعود من عملك سوف أحكى لك حكاية كنت قد تذكرتها عن جدى الأكبر.

قلت باستياء وضيق: يا جدتى الحبيبة لقد مللت من سماع حكاية جدك الأكبر، وتأكدت أنه حفر قناة السويس.

نظرت إلى نظرة حزينة وقالت: يا ولدى لا تقل ذلك!

قلت وأنا أربت عليها: أعرف أن جدك الأكبر عندما خرج ورفاقه من بلدتنا لم يعد منهم أحد سواه، وعندما سألوه عن رفاقه الذين لم يعد منهم أحد قال لهم لقد ماتوا جميعا، ودفنوهم فى رمال الشط، أليس كذلك ياجدتى؟ أومأت برأسها فى حزن!

قلت بلهجة الذى يعتذر: يا جدتى الحبيبة حكايات جدك الأكبر، انتصر فيها الإنسان المصرى على الظلم والقهر، وحكايتى مع رفاقى انتصر فيها الإنسان المصرى أيضا على العدوان والغصب، فى المرة الأولى كان التحدى أن تمتلئ القناة بالمياه الزرقاء لتمر السفن من الشمال للجنوب، ومن الجنوب للشمال، تحمل الخير للبشرية فى كل بقاع الدنيا، وفى المرة الثانية كان الواجب هو القضاء على الشر والهمجية، وتحريرها ممن اغتصبوها، انتصارا للحق وللعيش الكريم.

نظرت إلى نظرة عميقة ولم تجب!

قلت وأنا أبتسم لها: حكايتى ياجدتى الحبيبة حكاية عظيمة، وهى تستحق أن تحكيها للأبناء والأحفاد كما تحكين عن جدك الأكبر، عندما أعود من عملى سوف أحكى لك تلك الحكاية.

قبلتها وغـادرت الغرفة، واندفعت إلى الطريـق المؤدى إلى عملى تتداعـى إلى فكرى الذكريات، تذكرت ماحـدث يوم أن قمتُ ورفاقى بالهجـوم على ذلك الحصن الذى لان للأجسـاد وهو الذى لم تنل منه الصواريـخ ولا قنابل الطائرات! كان مجهزا بإتقان حتى لا تؤثر فيه أسلحة الفتك الحديثة، يومها تدافعنا نحوه يسقط منا العشرات فيحل مكانهـم آخرون، الطريـق الوحيد إلى الباب الفـولاذى الوحيد لهذا الحصن المحفور فى باطن الجبل لم يكن مستقيما، إنما كان متعرجا، تغطيـه النيران عند كل منحنى، الأجسـاد تتلقفها الطلقات فتسـقط وتتدحرج ما بين قتيل وجريح، ونحن نتقدم صوب الهدف المنشـود، هدفنا هو الوصول إلى هذا الحصن حتى نسكته، ليتوقف عن عدوانه، وتتوقف قذائفه التى يرسـلها كل حين لتدمر وتقتل الأبرياء الآمنين من سـكان المدينة، كان هذا يحدث بينما آلاف الجنود يعبرون القناة لدحـر العدو، وتحريـر الأرض، وهم بذلك يصنعـون مئات القصص والحكايات عن البطولة والتضحية.

سـوف أقص علـى جدتى كيف أقام الإسـرائيليون على الشـاطئ الشـرقى للقناة فى مواجهة مدينة السـويس هذا الموقـع المنيع الذى نحت فى جبل أصم، يسـتحيل علـى القنابل أو طلقات المدفعية النيل منـه، أو ممـن بداخله، بينما هم يوجهون أسـلحتهم للدمار والقتل والتخريـب، عَرْضُ القناة هو المسـافة التى تفصل بـين أبنية مدينة السويس وبين هذا الحصن الذى يحتله الإسرائيليون.

سـكان المدينـة مدنيون عـزل، وجنود إسـرائيليون يحتلون هذا الحصن فى الضفة الشرقية، وفى القناة مياه بلا سفن، ومدافع الحصن

تطلق طلقاتها كلما كان يحلو لقاطنيه ذلك، تعربد مقذوفاتها وتشعل النيران فى كل شىء يقع فى مرماها!

سوف تعرف جدتى أن جدها الأكبر الذى عاد سالما من السخرة، أُخِذ غصبا وقهرا، بينما أنا ورفاقى ذهبنا طائعين مدفوعين بحب الوطن لنقتحم هذا الحصن المنيع، واليوم أتذكر رفاقى الذين سقطوا فى الطريق ولم يصلوا إلى الباب الفولاذى للحصن اللعين.

سوف أقول لجدتى إن العدو الذى اغتصب أرضنا أقام هذا الحصن لا يفصله عن مدينة السويس سوى القناة التى حفرها جدها الأكبر، وسوف أصور لها كيف وضعوا داخل هذا الحصن مدافع تقصف المدينة الآمنة ليل نهار، تطل فوهات المدافع من مزاغلها لتقصف المنازل الآمنة فى كل وقت وحين!

وستعرف أننى أنا ورفاقى كان علينا واجب أن نقتحم هذا الحصن بعد أن استحال على الطائرات والمدافع تدميره، أو إسكاته! سأقول لها إنه لم يعد وقتها يا جدتى سلاح يقدر على هذا الفعل سوى الأجساد صاحبة الإرادة، كانت أجسامنا هى الأداة الوحيدة للوصول إليه، والقضاء على من فيه أو أسرهم، وعلى طول الطريق المؤدى إليه كانت تنهال علينا طلقات الرشاشات فتساقطت الأجساد بالعشرات، وظل من بقى يتقدم إلى أن تمكنا من إسكات النيران، وخرج من بالحصن كالفئران، بعد أن اختلطت الرمال بالدماء، وتفاعلت مع النسيج والعظام، وتلونت الأرض بدم رفاقى من الجنود لتصنع شاطئا من أجساد بشرية، ولتعيش المدينة آمنة أبيَّة، وتعبر السفن من الشمال للجنوب ومن الجنوب للشمال، سأقول لجدتى إن عليها أن تبدأ

الحكـى عن هؤلاء، مثـل ما ظلت تحكى عن جدهـا الأكبر حكايات التضحية والفداء من أجل الكرامة والحب والسلام.

آه يـا جدتى الحبيبة لو ذهبت إلى هناك فسـوف تشـمين رائحة المصريين الذين ضحوا بأرواحهم ولم يعودوا مع جدك الأكبر، والذين ضحوا بأرواحهم ولم يعودوا معى! ولا تنسى يا جدتى الحبيبة وأنت تحكين أن تقولى لمن يسـمعك: إن قناة السويس هى القناة الوحيدة فى كل الدنيا التى أقيمت شطوطها من لحم ودم!

عـدت إلى الدار فى المسـاء واتجهت إلى غرفـة جدتى لأحكى لها الحكاية، ودخلت إلى غرفتها لأجدها قد فارقت الحياة، بينما كانت والدتى تقف بجوارها دامعة العينين.

* * *

الفهرس

١ - عاشق المدينة.....٥
٢ - الشمس والقمر.....١٣
٣ - خطوة.. خطوتان.....١٩
٤ - رصاصة الخوف.....٢٧
٥ - شعبان المصرى.....٣٥
٦ - الأعلام الغارقة.....٤١
٧ - كانت لى.....٤٩
٨ - ابتسامة أمل.....٥١
٩ - الأصداف العالقة.....٦١
١٠ - ضِفاف من لحم.....٦٧